قوله تعالى : فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ ﴾ « لا » صلة فى قول أكثر المفسرين ، والمعنى فأقسم ؛ بدليل قوله : « وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ » . وقال الفراء : هى نفى ، والمعنى ليس الأمر كما تقولون ، ثم آستأنف « أُقْسِمُ » . وقد يقول الرجل : لا والله ما كان كذا فلا يريد به نفى اليمين ، بل يريد به نفى كلام تقدم . أى ليس الأمر كما ذكرت ، بل هو كذا . وقيل : « لا » بمعنى أَلَا للتنبيه كما قال(١) :

* أَلَا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي *

ونبه بهذا على فضيلة القرآن ليتدبروه ، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة كما زعموا . وقرأ الحسن وحميد وعيسى بن عمر « فَلَأُقْسِمُ » بغير ألف بعد اللام على التحقيق وهو فعل حال ويقدر مبتدأ محذوف ، التقدير : فلأنا أقسم بذلك . ولو أريد به الاستقبال للزمت النون ، وقد جاء حذف النون مع الفعل الذى يراد به الاستقبال وهو شاذ .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ مواقع النجوم مساقطها ومغاربها فى قول قتادة وغيره . عطاء بن أبى رَبَاح : منازلها . الحسن : آنكدارها وآنتثارها يوم القيامة . الضحاك : هى الأنواء التى كان أهل الجاهلية يقولون إذا مُطِروا قالوا مُطِرنا بنَوْء كذا . الماوردى : ويكون قوله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ » مستعملا على حقيقته من نفى القسم . القشيرى : هو قسم ، ولله تعالى أن يقسم بما يريد ، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة .

(١) قائله امرؤ القيس ؛ وتمامه :

* وهل يعمن من كان فى العصر الخالى *

قلت : يدل على هذا قراءة الحسن « فَلَأُقْسِمُ » وما أقسم به سبحانه من مخلوقاته فى غير موضع من كتابه . وقال ابن عباس : المراد بمواقع النجوم نزول القرآن نجوما ، أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ من السماء العليا إلى السَّفَرة الكاتبين ، فنجّمه السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام عشرين سنة ، فهو ينزله على الأحداث من أمته ؛ حكاه الماوردى عن ابن عباس والسّدى . وقال أبو بكر الأنبارى : حدثنا إسمعيل ابن إسحق القاضى حدثنا حجّاج بن المنهال حدثنا همّام عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم نزل إلى الأرض نجوما ، وفرق بعد ذلك خمس آيات خمس آيات وأقل وأكثر ، فذلك قول الله تعالى : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وحكى الفراء عن ابن مسعود أن مواقع النجوم هو محكم القرآن . وقرأ حمزة والكسائى « بِمَوْقِعِ » على التوحيد ، وهى قراءة عبد الله ابن مسعود والنَّخعى والأعمش وابن مُحيصن ورُوَيس عن يعقوب . الباقون على الجمع ؛ فمن أفرد فلأنه اسم جنس يؤدى الواحد فيه عن الجمع ، ومن جمع فلاختلاف أنواعه .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ قيل : إن الهاء تعود على القرآن ؛ أى إن القرآن لقسم عظيم ، قاله ابن عباس وغيره . وقيل : ما أقسم الله به عظيم « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » ذكر المقسم عليه ؛ أى أقسم بمواقع النجوم إن هذا القرآن قرآن كريم ، ليس بسحر ولا كهانة ، وليس بمفترى ، بل هو قرآن كريم محمود ، جعله الله تعالى معجزة لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهو كريم على المؤمنين ، لأنه كلام ربّهم ، وشفاء صدورهم ؛ كريم على أهل السماء ؛ لأنه تنزيل ربّهم ووَحْيه . وقيل : « كَرِيمٌ » أى غير مخلوق . وقيل : « كَرِيمٌ » لما فيه من كريم الأخلاق ومعانى الأمور . وقيل : لأنه يُكرِّم حافظه ، ويُعظّم قارئه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾ مصون عند الله تعالى . وقيل : مكنون محفوظ عن الباطل . والكتاب هنا كتاب فى السماء ؛ قاله ابن عباس . وقال جابر بن زيد وابن عباس أيضا : هو اللوح المحفوظ . عِكرمة : التوراة والإنجيل فيهما ذكر

القرآن ومن ينزل عليه . السّدىّ : الزبور . مجاهد وقتادة : هو المصحف الذى فى أيدينا .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ اختلف فى معنى « لَا يَمَسُّهُ » هل هو حقيقة فى المسّ بالجارحة أو معنًى ؟ وكذلك اختلف فى « الْمُطَهَّرُونَ » من هم ؟ فقال أنس وسعيد بن جُبير : لا يمسّ ذلك الكتاب إلا المطهَّرون من الذنوب وهم الملائكة . وكذا قال أبو العالية وابن زيد : إنهم الذين طُهِّروا من الذنوب كالرسل من الملائكة والرسل من بنى آدم؛ فجبريل النازل به مُطهَّر، والرسل الذين يجيئهم بذلك مُطهَّرون . الكلبىّ : هم السَّفَرة الكرام البَرَرَة . وهذا كله قول واحد، وهو نحو ما اختاره مالك حيث قال : أحسن ما سمعت فى قوله « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أنها بمنزلة الآية التى فى « عبس وتولّى » : « فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ . فِى صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِى سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ »(1) يريد أن المطهَّرين هم الملائكة الذين وصفوا بالطهارة فى سورة « عبس » . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا ينزل به « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » أى الرسل من الملائكة على الرسل من الأنبياء . وقيل : لا يمسّ اللوح المحفوظ الذى هو الكتاب المكنون إلا الملائكة المطهّرون . وقيل : إن إسرافيل هو الموكّل بذلك ؛ حكاه القشيرى . ابن العربى : وهذا باطل لأن الملائكة لا تناله فى وقت ولا تصل إليه بحال ، ولو كان المراد به ذلك لما كان للاستثناء فيه مجال . وأما من قال : إنه الذى بأيدى الملائكة فى الصحف فهو قول محتمل ؛ وهو اختيار مالك . وقيل : المراد بالكتاب المصحف الذى بأيدينا ؛ وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن فى كتاب عمرو بن حزم الذى كتبه له رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسخته : (من محمد النبىّ إلى شُرَحْبيل بن عبد كُلال والحرث بن عبد كُلال ونُعَيْم بن عبد كُلال قَيْل ذى رُعَين ومَعَافر وهَمْدان أما بعد) وكان فى كتابه : ألا يمسّ القرآن إلا طاهر . وقال ابن عمر : قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تمسّ القرآن إلا وأنت طاهر " . وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه وقد دخل عليها ودعا بالصحيفة : « لَا يَمَسُّهُ

(1) راجع جـ ١٩ ص ٢١٣

إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » فقام وآغتسل وأسلم . وقد مضى فى أول سورة « طه »[1] . وعلى هذا المعنى قال قتادة وغيره : « لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » من الأحداث والأنجاس . الكلبى : من الشرك . الربيع بن أنس : من الذنوب والخطايا . وقيل : معنى « لَا يَمَسُّهُ » لا يقرؤه « إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ » إلا الموحِّدون ؛ قاله محمد بن فضيل وعبدة . قال عكرمة : كان آبن عباس ينهى أن يُمكَّن أحد من اليهود والنصارى من قراءة القرآن . وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه وبركته إلا المطهرون ؛ أى المؤمنون بالقرآن . آبن العربى : وهو آختيار البخارىّ ؛ قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًّا" . وقال الحسين بن الفضل : لا يعرف تفسيره وتأويله إلا من طهَّره الله من الشرك والنفاق . وقال أبو بكر الورّاق : لا يوفق للعمل به إلا السّعداء . وقيل : المعنى لا يمسّ ثوابه إلا المؤمنون . ورواه معاذ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم . ثم قيل : ظاهر الآية خبر عن الشرع ؛ أى لا يمسّه إلا المطهّرون شرعًا ، فإن وجد خلاف ذلك فهو غير الشرع ؛ وهذا آختيار القاضى أبى بكر بن العربى . وأبطل أن يكون لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر . وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »[2] . المهدوىّ : يجوز أن يكون أمرا وتكون ضمة السين ضمة إعراب . ويجوز أن يكون نهيًا وتكون ضمة السين ضمة بناء والفعل مجزوم .

السادسة — وآختلف العلماء فى مسّ المصحف على غير وضوء ؛ فالجمهور على المنع من مسّه لحديث عمرو بن حزم . وهو مذهب علىّ وآبن مسعود وسعد بن أبى وقّاص وسعيد آبن زيد وعطاء والزّهرى والنّخعىّ والحكم وحمّاد ، وجماعة من الفقهاء منهم مالك والشافعى . وآختلفت الرواية عن أبى حنيفة ؛ فروى عنه أنه يمسّه المحدِث ، وقد روى هذا عن جماعة من السَّلف منهم آبن عباس والشعبى وغيرهما . وروى عنه أنه يمسّ ظاهره وحواشيه وما لا مكتوب فيه ، وأما الكتاب فلا يمسّه إلا طاهر . آبن العربى : وهذا إن سلّمه مما يقوى الحجة عليه ؛ لأن حريم الممنوع ممنوع . وفيما كتبه النبىّ صلى الله عليه وسلم لعمرو

(١) راجع جـ ١١ ص ١٦٣ (٢) راجع جـ ٣ ص ٩١

آبن حزم أقوى دليل عليه . وقال مالك : لا يحمله غير طاهر بعلاقة ولا على وسادة . وقال أبو حنيفة : لا بأس بذلك . ولم يمنع من حَمْله بعلاقة أو مسّه بحائل . وقد روى عن الحكم وحماد وداود بن علىّ أنه لا بأس بحمله ومسّه للمسلم والكافر طاهرا أو محدثا ، إلا أن داود قال : لا يجوز للمشرك حمله . واحتجوا فى إباحة ذلك بكتاب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى قيصر ، وهو موضع ضرورة فلا حجة فيه . وفى مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع آعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز ؛ لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ؛ لأن تعلمه[1] حال الصغر ؛ ولأن الصبىّ وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ؛ لأن النية لا تصح منه ، فإذا جاز أن يحمله على غير طهارة كاملة جاز أن يحمله محدثاً .

السابعـــة — قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى منزل ؛ كقولهم : ضَرْبُ الأمير وَنَسْج اليمن . وقيل : « تَنْزِيلٌ » صفة لقوله تعالى : « إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » . وقيل : أى هو تنزيل .

قوله تعالى : أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾ أى مكذبون ؛ قاله آبن عباس وعطاء وغيرهما . والمُدْهِن الذى ظاهره خلاف باطنه ، كأنه شبّه بالدُّهن فى سهولة ظاهره . وقال مقاتل بن سليمان وقتادة : مُدْهِنون كافرون ؛ نظيره : « وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ »[2] . وقال المؤرّج : المدهن المنافق أو الكافر الذى يُلين جانبه ليُخْفِى كفره ،

(١) فى ب ، ح ، ز ، س ، ه : «لأن حال تعلمه حال الصغر» .
(٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٣٠

والإدهان والمداهنة التكذيب والكفر والنفاق ، وأصله اللّين ، وأن يُسِرّ خلاف ما يظهر؛ وقال أبو قيس بن الأَسْلَت :

الحَزْمُ والقُوّةُ خيرٌ مِنَ الإدهانِ والفَهّةِ والهاعِ (١)

وأدهن وداهن واحد . وقال قوم : داهنت بمعنى واريت وأدهنت بمعنى غَشَشْتَ . وقال الضحاك : « مُدْهِنُونَ » معرضون . مجاهد : ممالئون الكفار على الكفر به . ٱبن كيسان : المدهن الذي لا يعقل ما حقّ الله عليه و يدفعه بالعلل . وقال بعض اللغويين : مدهنون تاركون للجزم في قبول القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ قال ٱبن عباس : تجعلون شكركم التكذيب . وذكر الهيثم بن عدي : أن من لغة أزد شنوءة ما رِزق فلان؟ أي ما شكره . وإنما صلح أن يوضع ٱسم الرزق مكان شكره ؛ لأن شكر الرزق يقتضي الزيادة فيه فيكون الشكر رزقاً على هذا المعنى . فقيل : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ » أي شكر رزقكم الذي لو وجد منكم لعاد رزقا لكم ﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ بالرزق أي تضعون الكذب مكان الشكر؛ كقوله تعالى : « وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً » (٢) أي لم يكونوا يُصلّون ولكنهم كانوا يصفّرون و يُصفّقون مكان الصلاة . ففيه بيان أن ما أصاب العباد من خير فلا ينبغي أن يروه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكن أسبابا ، بل ينبغي أن يروه من قِبل الله تعالى ، ثم يقابلونه بشكرٍ إن كان نعمة ، أو صبرٍ إن كان مكروها تعبّدا له وتذلّلاً . وروى عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ « وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » حقيقة . وعن ٱبن عباس أيضا : أن المراد به الاستسقاء بالأنواء، وهو قول العرب : مُطِرنا بنَوْء كذا؛ رواه عليّ بن أبي طالب عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفي صحيح مسلم عن ٱبن عباس قال : مُطِر الناسُ على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أصبح من الناس شاكر ومنهم كافرٌ قالوا

(١) الفهة : العي . والهاع هنا : سوء الحرص مع ضعف . (٢) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠

هذه رحمة الله وقال بعضهم لقد صَدَق نَوْءُ كذا وكذا ؛ قال : فنزلت هذه الآية : « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ — حتى بلغ — «وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ »". وعنه أيضا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج في سفر فعطشوا فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أرأيتم إن دعوت الله لكم فسُقِيتم لعلكم تقولون هذا المطر بِنَوْءِ كذا " فقالوا : يا رسول الله ما هذا بحين الأَنواء . فصلّى ركعتين ودعا ربه فهاجت ريح ثم هاجت سحابة فمُطِروا ؛ فمرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه عصابة من أصحابه برجل يغترف بقدح له وهو يقول سُقِينا بِنَوْءِ كذا ، ولم يقل هذا من رزق الله فنزلت : « وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » أي شكركم لله على رزقه إياكم « أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ » بالنعمة وتقولون سُقِينا بِنَوْءِ كذا ؛ كقولك : جعلتَ إحساني إليك إساءة منك إليّ ، وجعلتَ إنعامي لديك أن آتخذتني عدوًّا . وفي الموطأ عن زيد بن خالد الجُهَنيّ أنه قال : صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحُدَيْبِيَة على إِثْرِ (١) سماء كانت من الليل ، فلما آنصرف أقبلَ على الناس وقال : " أتدرون ماذا قال ربكم " قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : " أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر بالكوكب فأما من قال مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مُطِرنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلك مؤمن بالكوكب كافر بي " . قال الشافعي رحمه الله : لا أحبّ أحدا أن يقول مُطِرنا بِنَوْءِ كذا وكذا ، وإن كان النَّوْء عندنا الوقت المخلوق لا يضر ولا ينفع ، ولا يمطر ولا يحبس شيئا من المطر ، والذى أحبّ أن يقول : مُطِرنا وقت كذا كما تقول مُطِرنا شهر كذا ، ومن قال : مُطِرنا بِنَوْءِ كذا ، وهو يريد أن النَّوْء أنزل الماء ، كما عنى بعض أهل الشرك من الجاهلية بقوله فهو كافر ، حلال دمه إن لم يتب . وقال أبو عمر بن عبد البر : وأما قوله عليه الصلاة والسلام حاكيًا عن الله سبحانه : " أصبح من عبادى مؤمن بي وكافر " فمعناه عندى على وجهين : أما أحدهما فإن المعتقد بأن النَّوْء هو الموجب لنزول الماء ، وهو المنشئ للسحاب دون الله عز وجل فذلك كافر كفرًا صريحا (٢) يجب آستتابته عليه وقتله [إن أبى] (٣) لنبذه الإسلام ورده القرآن . والوجه الآخر أن

(١) على إثر سماء : أي بعد مطر . وفي « إثر » لغتان : كسر الهمزة وسكون الثاء وفتحهما .

(٢) في ب : « صراحا » . (٣) زيادة يقتضيها السياق .

يعتقد أن النوء ينزل الله به الماء ، وأنه سبب الماء على ما قدره الله وسبق فى علمه ؛ وهذا وإن كان وجها مباحا ، فإن فيه أيضا كفرا بنعمة الله عز وجل ، وجهلا بلطيف حكمته فى أنه ينزل الماء متى شاء ، مرة بنوء كذا ، ومرة بنوء كذا ، وكثيرا ما ينوء النوء فلا ينزل معه شيء من الماء ، وذلك من الله تعالى لا من النوء . وكذلك كان أبو هريرة يقول إذا أصبح وقد مطر : مطرنا بنوء الفتح ؛ ثم يتلو : « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا »[(١)] قال أبو عمر : وهذا عندى نحو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مُطِرنا بفضل الله ورحمته". ومن هذا الباب قول عمر بن الخطاب للعباس بن عبد المطلب حين آستسقى به : ياعم رسول الله صلى الله عليه وسلم كم بقى من نوء الثريا؟ فقال العباس : العلماء يزعمون أنها تعترض فى الأفق سبعا بعد سقوطها . فما مضت سابعة حتى مطروا ؛ فقال عمر : الحمد لله هذا بفضل الله ورحمته . وكأن عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثريا وقت يُرجى فيه المطر ويؤمّل فسأله عنه أخرج أم بقيت منه بقية ؟ . وروى سفيان بن عيينة عن إسمعيل بن أمية أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سمع رجلا فى بعض أسفاره يقول : مُطرنا ببعض عثانين الأسد ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كذبت بل هو سُقيا الله عز وجل" قال سفيان : عثانين الأسد الذراع والجبهة . وقراءة العامة « تُكَذِّبون » من التكذيب . وقرأ المفضّل عن عاصم ويحيى بن وثّاب « تَكْذِبُونَ » بفتح التاء مخففا . ومعناه ما قدمناه من قول من قال : مطرنا بنوء كذا . وثبت من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ثلاث لن يزلن فى أمتى التفاخر فى الأحساب والنِّياحة والأنواء" ولفظ مسلم فى هذا "أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهنّ الفخر فى الأحساب والطعن فى الأنساب والآستسقاء بالنجوم والنياحة" .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ أى فهلا إذا بلغت النفس أو الروح الحُلقوم . ولم يتقدم لها ذكر ؛ لأن المعنى معروف ؛ قال حاتم .

أَمَاوِيّ ما يُغْنِي الثَّرَاءُ عن الفتى * إذا حَشْرَجَتْ يَوْمًا وضاقَ بها الصَّدْرُ

---

(١) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١

وفى حديث : " إنّ مَلَك الموت له أعوان يقطعون العروق و يجمعون الروح شيئًا فشيئًا حتى ينتهى بها إلى الحُلْقوم فيتوفاها مَلَك الموت " . ﴿ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ أمرى وسلطانى . وقيل : تنظرون إلى الميّت لا تقدرون له على شىء . وقال ٱبن عباس : يريد من حضر من أهل الميت ينتظرون متى تخرج نفسه . ثم قيل : هو ردٌّ عليهم فى قولهم لإخوانهم « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا »(١) أى فهل ردّوا رُوح الواحد منهم إذا بلغت الحلقوم . وقيــل : المعنى فهلّا إذا بلغت نفس أحدكم الحلقوم عند النزع وأنتم حضور أمسكتم روحه فى جسده ، مع حرصكم على ٱمتداد عمره ، وحبكم لبقائه . وهذا ردّ لقولهم : « نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ »(٢) . وقيل : هو خطاب لمن هو فى النزع ؛ أى إن لم يك ما بك من الله فهلّا حفظت على نفسك الروح . ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ أى بالقدرة والعلم والرؤية . قال عامر بن عبد القيس : ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله تعالى أقرب إلىّ منه . وقيل : أراد ورسلنا الذين يتولّون قبضه « أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ » ﴿ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أى لا ترونهم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أى فهلّا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ؛ ومنه قوله تعالى : « إِنَّا لَمَدِينُونَ »(٣) أى مجزيون محاسبون . وقد تقدم . وقيل : غير مملوكين ولا مقهورين . قال الفراء وغيره : دِنْتُه ملكته ؛ وأنشد للحطيئة :

لقد دُيِّنْتِ(٤) أَمْرَ بَنِيكِ حَتَّى * تَرَكْتِهِـمُ أَدَقَّ مِنَ الطَّحِينِ

يعنى مُلِّكْتِ . ودانه أى أذله وٱستعبده ؛ يقال : دنته فدان . وقد مضى فى « الفاتحة »(٥) القول فى هذا عند قوله تعالى : « يَوْمِ الدِّينِ » . ﴿ تَرْجِعُونَهَا ﴾ ترجعون الروح إلى الجسد . ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى ولن ترجعوها فبطل زعمكم أنكم غير مملوكين ولا محاسبين . و « تَرْجِعُونَهَا » جواب لقوله تعالى : « فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ » ولقوله : « فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ »

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ١٦ ص ١٧٠

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٨٢ (٤) ويروى : سوست ؛ يخاطب أمه .

(٥) راجع جـ ١ ص ١٤٣ .

أجيبا بجواب واحد، قاله الفراء . وربما أعادت العرب الحرفين ومعناهما واحد، ومنه قوله تعالى : « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(١) أجيبا بجواب واحد وهما شرطان . وقيل : حذف أحدهما لدلالة الآخر عليه . وقيل : فيها تقديم وتأخير، مجازها : فلولا وهلّا إن كنتم غير مدينين ترجعونها؛ تردّون نفس هذا الميّت إلى جسده إذا بلغت الحلقوم .

قوله تعالى : فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ ذكر طبقات الخلق عند الموت وعند البعث، وبيّن درجاتهم فقال : « فَأَمَّا إِنْ كَانَ » هذا المتوفَّى « مِنَ الْمُقَرَّبِينَ » وهم السابقون. ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾ وقراءة العامة « فَرَوْحٌ » بفتح الراء ومعناه عند ابن عباس وغيره: فراحة من الدنيا . وقال الحسن : الرَّوْح الرحمة . الضحاك : الرَّوْح الاستراحة . القُتَبِيّ : المعنى له في القبر طيب نسيم . وقال أبو العباس بن عطاء : الرّوح النظر إلى وجه الله، والريحان الاستماع لكلامه ووحيه، « وَجَنَّةُ نَعِيمٍ » هو ألا يُحجب فيها عن الله عز وجل . وقرأ الحسن وقتادة ونصر بن عاصم والجَحْدريّ ورُوَيس وزيد عن يعقوب « فَرُوحٌ » بضم الراء، ورويت عن ابن عباس . قال الحسن : الرُّوح الرحمة؛ لأنها كالحياة للمرحوم . وقالت عائشة رضي الله عنها : قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم « فَرُوحٌ » بضم الراء ومعناه فبقاء له وحياة

(١) راجع جـ ١ ص ٣٢٧